قواعد قرآنية عامة في الدعوة
إلى الله تعالى

د . رياض بن محمد المسيميري

- عضو هيئة التدريس بكلية أصول الدين بالرياض جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .
- حصل على درجة الماجستير من كلية أصول الدين بالرياض جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بأطروحته (تفسير ابن شهاب الزهري من أول القرآن الكريم إلى آخر سورة الإسراء جمعاً ودراسة) .
- حصل على درجة الدكتوراه من كلية أصول الدين بالرياض جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بتحقيق كتاب (أنوار الحقائق الربانية في تفسير اللطائف القرآنية لمحمود بن عبد الرحمن الأصفهاني ، من أول سورة يونس إلى آخر سورة النحل) .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

أنزل الله تعالى كتابه الكريم دستوراً للأمة ومنهج حياة لها، وأمر بأن يرجع إليه في كل قضايا الأمة التشريعية والتعبدية والدعوية والأخلاقية وغير ذلك، ممّا هو معلوم للجميع .

وإنَّ من أولى الناس بحثاً في هذا القرآن الكريم ، واستخراجاً لكنوزه، واستنباطاً لقواعده وضوابطه في مناحي الحياة كآفّة هم أهل القرآن ؛ فهم بعلومه أعلم ، وبكنوزه أفهم ، ولفوائده أجمع .

وإنَّ مما ينبغي أن تتجه إليه هممُ أهل القرآن : استنباط قواعد القرآن المنظمة للدعوة إلى الله ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ لكون هاتين المهمتين هما أخصَّ وأنفس خصائص هذه الأمةِ الوسط لقوله تعالى : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٣] .

ولذا رأيت جمع بعض قواعد القرآن؛ لتكون نبراساً لكل داعية ومحتسب، على غرار القواعد الفقهية التي استخلص كثيرٌ منها من كتاب الله ، وليكون في هذه الخطوة تحفيزاً لهمم أهل العلم وطلابه لاستنباط قواعدَ أُخر في شؤون الأسرة والاقتصاد والسياسة والأخلاق والسلوك وغيرها ، وفي هذه المقدمة سأتناول بحول الله وقوته ثلاثة أمور :

أولاً: أسباب اختيار الموضوع :

ألخص أسباب اختياري لهذا الموضوع فيما يلي :

١ - رغبتي باستقراء القرآن الكريم، وجمع بعض قواعده في الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ لتكون نبراساً وزاداً لعموم الأمة وخاصتها من أهل الدعوة والاحتساب ؛ فإنّ الله وصف هذه الأمة بأنهّا أمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأمة الدعوة والعلم والعمل.

قال تعالى : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٣] .

وقال : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [آل عمران : ١١٠] .

٢ – توجيه الهمم نحو استخراج كنوز القرآن وقواعده وشرائعه، فليس في الوجود من خير إلاّ دلّ عليه كتابُ الله، وليس في الوجود من شرٍ إلا حذّر منه قرآنُ ربِّنا تبارك وتعالى .

ثانياً: خطة البحث :

يقع هذا البحث في مقدمة وعشرين قاعدة وخاتمة .

القاعدة الأولى : الإيمان بوجوب الدعوة حسب المستطاع .

القاعدة الثانية : لا بدَّ من استصحاب الحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن عند الدعوة إلى الله تعالى .

القاعدة الثالثة : العلمُ قبل العمل .

القاعدة الرابعة : الازديادُ من العلم ما أمكن .

القاعدة الخامسة : إعلان الداعية عن حقيقة رسالته التي يدعو إليها .

القاعدة السادسة : قوة الحجة ، وسلامة الفكرة ، وصلابة البرهان .

القاعدة السابعة : توقع العداوة من الآخرين .

القاعدة الثامنة : الصبر على أعباء الدعوة، ومشاقِّ الطريق .

القاعدة التاسعة : التوكل على الله سبحانه .

القاعدة العاشرة : الاعتقاد الجازم بأنَّ الهداية بمعناها الخاص بيد الله وحده .

القاعدة الحادية عشرة : عدم استعجال النتائج .

القاعدة الثانية عشرة: مهمة الداعية البلاغ .

القاعدة الثالثة عشرة : الجمع بين البشارة والنذارة باعتدال .

القاعدة الرابعة عشرة: الوقوف عند حدود الشارع.

القاعدة الخامسة عشرة: الثقة بحسن العاقبة.

القاعدة السادسة عشرة: الثبات على المبدأ.

القاعدة السابعة عشرة: الصدع بالحق.

القاعدة الثامنة عشرة : الدعاء: سلاح الداعية الفتاك.

القاعدة التاسعة عشرة : الاستعانة بالصلاة.

القاعدة العشرون : سدُّ الذرائع .

ثالثاً : المنهج المتبع في إخراج البحث :

(١) قرأت القرآن الكريم – متدبراً– ثم ذكرتُ كلَّ قاعدة وأدلتها باختصار.

(٢) عزوتُ الآيات إلى سورها، مع ذكر رقم الآية.

(٣) خرَّجتُ الأحاديث من مصادرها المعتمدة، مع الحُكم على الحديث إن كان في غير الصحيحين أو أحدهما، وذكرتُ كلامَ أهلِ العلم فيه.

(٤) شرحتُ الغريب من الألفاظ بالرجوع إلى كتب القواميس وغيرها.

(٥) التزمت الترتيب والتنظيم، وسلاسة العرض، وسهولة العبارة، ووضوح الفكرة بحسب الطاقة والإمكان .

القاعدة الأولى : الإيمان بوجوب الدعوة حسب المستطاع .

قال الله تعالى : ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾ [النحل :١٢٥]

قال الطبري : « يقول –تعالى ذكره– لنبيه محمد ﷺ : ادع يامحمد من أرسلك إليه ربك بالدعاء إلى طاعته، إلى ﴿ سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾ يقول : إلى شريعة ربك التي شرعها لخلقه، وهو: الإسلام ﴿ بِٱلۡحِكۡمَةِ ﴾ يقول : بوحي الله الذي يوحيه إليك، وكتابه الذي يُنزِّلهُ عليك ﴿ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِ ﴾ يقول : وبالعبر الجميلة التي جعلها الله حجة عليهم في كتابه ، وذكرَّهم بها في تنزيله ، كالتي عدّد عليهم في هذه السورة من حججه، وذكرَّهم فيها ما ذكرَّهم من آلائه،﴿ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾ يقول : وخاصمهم بالخصومة التي هي أحسن من غير أن تصفح عما نالوا به عرضك من الأذى ، ولا تعصه في القيام بالواجب عليك من تبليغهم رسالة ربك، وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل » (١) .

وقال القرطبي : « هي محكمةٌ في جهة العصاة من الموحدين ، ومنسوخةٌ بالقتال في حقّ الكافرين وقد قيل: إنّ من أمكنت معه هذه الأحوال من الكفار ورُجي إيمانه بها دون قتال فهي فيه محكمةٌ والله أعلم » (٢) .

وعند قوله –تعالى– : ﴿ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ ﴾ [آل عمران : ١٠٤] .

وجدت لابن كثير هذه الإضافة المهمة : « يقول تعالى: ولتكن منكم أمةٌ منتصبةٌ للقيام بأمر الله في الدعوة إلى الخير ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون » (٣) .

والمقصود من هذه الآية : أنْ تكون فرقة من هذه الأمة متصدية لهذا الشأن ، وإن كان ذلك واجبا على كل فرد من الأمة بحسبه كما ثبت عن أبي سعيد

(١) انظر : « تفسير الطبري » (ج١٤/ ص ١٩٤) .

(٢) انظر : « تفسير القرطبي » (ج١٠/ ص ٢٠٠) .

(٣) انظر : « تفسير ابن كثير » (ج١/ ص ٣٩١) .

ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان » (١) ، وفي رواية « وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل » .

وروى الإمام أحمد : عن حذيفة بن اليمان ﷺ أنَّ النبي ﷺ قال : « والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم » (٢) .

وروى الترمذي (٣) من حديث عمرو بن أبي عمرو به ، وقال الترمذي : حسن ، والأحاديث في هذا الباب كثيرةٌ مع الآيات الكريمة .

قلت : فالإيمان بوجوب الدعوة ولزومها كفيل بدفع الداعية إلى التفاني في محاولة إنجاح دعوته، وبذل الغالي والرخيص في سبيل تحقيق برنامجه وطموحه الدعوي .

وما النجاحات التي حققها الأنبياء والرسل وورثتهم من الدعاة والمصلحين ، إلا ثمرة لإيمانهم العميق ، ويقينهم الصادق بوجوب الدعوة وحتميتها.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الإيمان ، باب كون النهي عن المنكر من الإيمان ، حديث رقم (٧٠) (١/ ١٦٧) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ، حديث حذيفة بن اليمان عن النبي ﷺ ، حديث رقم (٥٣٨٨) (٤٧/ ٢٨١) .

(٣) أخرجه الترمذي في سننه ، كتاب الفتن ، باب ما جاء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، حديث رقم (٢١٦٩) (٨/ ٧٥) .

القاعدة الثانية : لا بد من استصحاب الحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن عند الدعوة إلى الله تعالى .

قال تعالى : ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ ﴾ [النحل : من الآية ١٢٥] .

قال ابن جرير : الحكمة : ما أنزل الله على نبيه من الكتاب والسنة .

قلت : ويمكن أن يقال : الحكمة : وضع الشيء في موضعه الملائم ، فالحزم في موضعه واللين في موضعه .

تأمل موقف نبينا ﷺ من حِبِّه أسامة بن زيد ؓ حين شفع في المخزومية التي سرقت ، وكيف أغلظ له القول ، وخطب خطبته المدوية ، كما في حديث عائشة « أنَّ قريشاً أهمّهم شأن المرأة المخزومية[1] التي سرقت ، فقالوا : ومن يكلمُ فيها رسول الله ﷺ ؟ فقالوا : ومن يجترئ عليه إلا أسامةُ بن زيد حِبُّ رسول الله ﷺ فكلّمه أسامة ! فقال : رسول الله ﷺ أتشفع في حد من حدود الله ؟! ثم قام فاختطب ؛ ثم قال : إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحدّ ! وأيم الله ، لو أنَّ فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها »[2] .

وتأمل موقفه من أسامه ؓ أيضاً حين قتل المشرك بعد أن تلفظ بالشهادة ، وهذا سياق الحديث بتمامه: عن أسامة بن زيد ؓ قال : « بعثنا رسول الله ﷺ في سرية فصبحنا الحُرُقَات من جُهَيْنَة ؛ فأدركتُ رجلاً فقال : لا إله إلا الله ، فطعنته ؛ فوقع في نفسي من ذلك فذكرته للنبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ : أقال لا إله إلا الله وقتلته ؟! قال : قلت : يا رسول الله ، إنما قالها خوفاً من السلاح ! قال : أفلا

---

(١) المخزومية : هي فاطمة بنت الأسود ، بنت أخي أبي سلمة الصحابي الذي كان زوج أم سلمة قبل زواجها بالنبي عليه السلام ، ينظر: فتح الباريء لابن حجر ١٢/ ٩١ .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الحدود ، باب كراهية الشفاعة في الحدِّ إذا رُفِعَ إلى السُّلطان ، حديث رقم (٦٢٩٠) (٢١/ ٤٩) .

ومسلم في صحيحه ، كتاب الحدود ، باب قطع السارق الشريف وغيره والنهي عن الشفاعة في الحدود ، حديث رقم (٣١٩٦) (٩/ ٥٤) .

شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا ؟! فما زال يكررها علي حتى تمنيت أني أسلمت يومئذ ! قال : فقال سعد : وأنا والله لا أقتلُ مسلماً حتى يقتله ذو البطين - يعني أسامة - قال : قال رجل : ألم يقل الله : ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾ فقال سعد : قد قاتلنا حتى لا تكون فتنة ، وأنت وأصحابك تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة »[1] .

وأما اللين وسعة الصدر فأمثلته تفوق الحصر :

ففي صحيح مسلم ، عن إسحاق بن أبي طلحة حدثني أنس بن مالك ﷺ - وهو عم إسحاق - قال : « بينما نحن في المسجد مع رسول الله ﷺ إذ جاء أعرابي ، فقام يبول في المسجد! فقال أصحاب رسول الله ﷺ : مه مه قال : قال رسول الله ﷺ : لا تزرموه[2] ، دعوه . فتركوه حتى بال ثم إنَّ رسول الله ﷺ دعاه فقال له : إنَّ هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول ولا القذر ، إنما هي لذكر الله - عز وجل - والصلاة ، وقراءة القرآن، أو كما قال رسول الله ﷺ قال : فأمر رجلاً من القوم فجاء بدلو من ماء فشنَّه عليه »[3] .

أما الموعظة الحسنة : فقد قال ابنُ كثير في بيانها : أي بما في آي القرآن من الزواجر والوقائع بالناس ، ذكِّرهم بها ليحذروا بأس الله[4] .

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الإيمان ، باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال لا إله إلا الله ، حديث رقم (١٤٠) (١/ ٢٥٨) .

(٢) أي لا تقطعوا عليه بوله. يقال : زَرِمَ الدمع والبول إذا انقطعا ، وأزرَمته أنا . ينظر : « النهاية لابن الأثير » (٢/ ٣٠١) .

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الطهارة ، باب وجوب غسل البول وغيره من النجاسات إذا حصلت في المسجد وأن الأرض تطهُرُ بالماء من غير حاجةٍ إلى حفرها ، حديث رقم (٤٢٩) (٢/ ١٣٣) .

(٤) انظر : « تفسير ابن كثير » (٤/ ٥٢٣) .

قلت : إذاً على الداعية أن يكثر من مطالعة القرآن، والسيرة النبوية كذلك ليتعرف على ما في القرآن - خاصّة - من الزواجر؛ كزجره عن الشرك و البدعة و الفاحشة والربا والزنا والظلم والبغي والعقوق.. الخ .

ليكون كلامه وطرحه مؤيداً بالأدلة الشافية الكافية.

وأما المجادلة بالحسنى :فقد قال ابن كثير : « أي من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال ؛ فليكن بالوجه الحسن برفق ولين،وحسن خطاب كما قال : ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ ﴾ [العنكبوت : ٤٦] (١) .

قلت : وهكذا الداعية يجدر به أن يجادل بالحسنى واللين والرفق من غلب على ظنه بحثه عن الحق من المخالفين الراغبين في فهم الحجة للاقتناع بها.

أما من كان منهم ذا اعتداد برأيه وأنفة عن قبول الرأي الآخر فلا داعي لإضاعة الوقت في جدال عقيم بلا جدوى .

قد يصادف الداعية امرأة سافرة – تديناً - بمعنى أنها تعتقد أنَّ كشف الوجه جائزٌ شرعاً ، إمّا لما درجت عليه في مجتمعها ، أو بسبب مذهب مرجوح أو غير ذلك ، لكنها لا تمانع من الحوار الهادف ، ولديها الاستعداد لسماع الرأي المخالف بدليله ، فمثل هذه لا بأس أن يناصحها الداعية ولو طال الزمن ، فيسمع منها وتسمع منه مادام بالإمكان هدايتها أو على الأقل إبلاغها الحق في المسألة.

---

(١) المرجع السابق (٤/ ٥٢٣)

القاعدة الثالثة : العلم قبل العمل.

قال تعالى: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ ﴾ [محمد :١٩] .

فقد أمر الله تعالى نبيه ﷺ بالتعلم ثم أمره بالعمل ، وهو: الاستغفار لنفسه وللمؤمنين والمؤمنات .

قال الطبري : « يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ : فاعلم يا محمد أنَّه لا معبود تنبغي أو تصلح له الألوهة ، ويجوز لك وللخلق عبادته ، إلا الله الذي هو خالق الخلق ومالك كلِّ شيء، يدينُ له بالربوبية كلُّ ما دونه ، ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ ﴾ وسل ربك غفران سالف ذنوبك وحادثها ، وذنوب أهل الإيمان بك من الرجال والنساء » (١) .

قلت : وعليه بوّب البخاري في الصحيح فقال : « بابٌ : العلمُ قبل العمل » .

لذا على الداعية أن يتعلم قبل أن يدعو لتكون دعوته عن علم ؛ لكن لا ينبغي له التسويف ، ويظن أنَّه لا دعوة إلا بعد بلوغ سن معينة ، أو حفظ قدر معين من القرآن أو السنة ، أو قراءة كتاب كذا وكذا ... فالواجب أن يدعو في حدود ما لديه من العلم ، كما أخبر الله تعالى عن الجن في قوله : ﴿وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ ﴾ [الأحقاف : ٢٩] .

فتأمل كيف طلب هؤلاء الجن العلم، وأنصتوا للقرآن الكريم خاشعين : ﴿ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ ﴾ [الأحقاف : ٢٩] .

أي بادروا إلى دعوة قومهم فور انقضاء القراءة ، واكتسابهم شيئاً من العلم .

وفي البخاري عن عبد الله بن عمرو ﷺ أنّ النبي ﷺ قال : « بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ومن كَذَبَ عليَّ مُتعمداً فليتبوأ مقعده من النار » (٢) .

---

(١) انظر : « تفسير الطبري » (ج٢٦/ ص٥٣) .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب أحاديثِ الأنبياءِ ، باب ما ذكر عن بني إسرائيل ، حديث رقم (٣٢٧٤) (٢٧٧/١١) .

قال المباركفوري : « أي ولو كان المبلَّغ آية . قال في اللمعات : الظاهر أن المراد آية القرآن ، أي ولو كانت آية قصيرة من القرآن ، والقرآن مبلغ عن رسول الله ﷺ لأنَّه الجائي به من عند الله ، ويفهم منه تبليغ الحديث بالطريق الأولى ؛ فإنَّ القرآن مع انتشاره وكثرة حملته وتكفل الله –سبحانه- بحفظه لمـاَّ أُمرنا بتبليغه ؛ فالحديث أولى » [١] .

وفي حديث وفد « عبد القيس » الثابت في الصحيحين أمرهم ﷺ بحفظ ما أتحفهم به من العلم، وإبلاغه قومهم .

ففي البخاري ومسلم، من حديث أبي جمرة [٢] ، قال : «كنت أترجم بين ابن عباس وبين الناس فقال : إنَّ وفد عبد القيس أتوا النبي ﷺ فقال : من الوفدُ أو من القوم ؟ قالوا : ربيعة فقال : مرحبا بالقوم أو بالوفد غير خزايا ولا ندامى . قالوا : إنَّا نأتيك من شقة بعيدة، وبيننا وبينك هذا الحي من كفار مُضَر ، ولا نستطيع أن نأتيك إلا في شهر حرام ، فمرنا بأمر نخبر به من وراءنا ندخل به الجنة . فأمرهم بأربع ونهاهم عن أربع : أمرهم بالإيمان بالله عز وجل وحده ، قال : هل تدرون ما الإيمان بالله وحده ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وتعطوا الخمس من المغنم . ونهاهم عن : الدُبَّاء ، والحَنْتَم [٣] ، والمُزَّفت ، قال شعبة : ربما قال : النَّقير . وربما قال : المُقِير [٤] قال : احفظوه وأخبروه من وراءكم » [٥] .

---

(١) انظر : « تحفة الأحوذي » للمباركفوري (ج٧/ ص٣٦٠) .

(٢) أبوجمرة : هونصر بن عمران الضبعي،نزيل خراسان، مشهور بكنيته، ثقة ثبت، من الثالثة، مات سنة (١٢٨) . ينظر : « التقريب لابن حجر » (ص : ٥٦١) .

(٣) الحَنْتَم :جرار مدهونة كانت تُحمل الخمر فيها إلى المدينة ، نُهي عن الانتباذ فيها لسرعة الشدة فيها . ينظر : « النهاية لابن الأثير » (١ / ٤٤٨) .

(٤) النقير : أصل النخلة يُنقر وسطه ثم ينبذ فيه التمر ، ويُلقى عليه الماء ليصير نبيذا مسكراً ينظر : « النهاية لابن الأثير » (٥/ ١٠٥) .

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب العلم ، باب تحريض النبي ﷺ وَفْدَ عَبْدِ الْقَيْسِ عَلَى أَنْ يَحْفَظُوا الْإِيمَانَ وَالْعِلْمَ وَيُخْبِرُوا مَنْ وَرَاءَهُمْ وَقَالَ مَالِكُ بْنُ الْحُوَيْرِثِ قَالَ لَنَا النَّبِيُّ – صلى الله عليه وسلم – ارْجِعُوا إِلَى أَهْلِيكُمْ فَعَلِّمُوهُمْ ، حديث رقم (٨٥) (١/ ١٥٤) . =

القاعدة الرابعة : الازدياد من العلم ما أمكن .

قال تعالى : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه : ١١٤] .

فالداعية الجاد لا يزال حريصاً كل الحرص على الحفظ والفهم ، وكثرة المطالعة والقراءة والبحث .

ولا بد أن يثري ثقافته بمتابعة أحداث الساعة ومستجدات العصر ، وتأصيلها من الناحية الشرعية ، ومن ثم الانطلاق في دعوته على أسس راسخة متينة من العلم والثقافة والنظرة الشرعية الصحيحة .

قال الطبري : « قوله : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ ، يقول تعالى ذكره : وقل يا محمد رب زدني علما إلى ما علمتني ، أمره بمسألته من فوائد العلم ما لا يعلم » (١) .

وقال ابن كثير : « قال ابن عيينة – رحمه الله – ولم يزل ﷺ في زيادة حتى توفاه الله ﷻ ، ولهذا جاء في الحديث إنَّ الله تابع الوحي على رسوله حتى كان الوحي أكثر ما كان يوم توفي رسول الله ﷺ » (٢) .

= ومسلم في صحيحه ، كتاب الإيمان ، بَاب الْأَمْرِ بِالْإِيمَانِ بِاللَّهِ تَعَالَى وَرَسُولِهِ ﷺ وَشَرَائِعِ الدِّينِ وَالدُّعَاءِ إِلَيْهِ وَالسُّؤَالِ عَنْهُ وَحِفْظِهِ وَتَبْلِيغِهِ مَنْ لَمْ يَبْلُغْهُ ، حديث رقم (٢٤) (١/ ١٠٧) .

(١) انظر : « تفسير الطبري » (ج١٦/ ص٢٢٠) .

(٢) انظر : « تفسير ابن كثير » (ج٣/ ص١٦٨) .

القاعدة الخامسة : إعلان الداعية عن حقيقة رسالته التي يدعو إليها .

﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [الحجر :٩٤] .

وأعني بذلك أن يُصرِّح الداعيةُ بما يعتقده ويؤمن به، فيبيِّن للناس أنَّه داعية إلى الإسلام بأصوله وفروعه، وشموله وكماله، وأدبياته وأخلاقياته .

لابدّ من وضوح الدعوة والجهر بها ، والاعتزاز بقيمها فالخائف أو المتوجس ، لا يصلح أن يتصدى للدعوة ، كما أنَّ الدعوة لا تَشرفُ بانتسابه لها قال تعالى : ﴿ قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ ﴾ [يوسف : ١٠٨] .

فقد أمر الله – تعالى– نبيه الكريم بالإعلان عن دعوته جهاراً ، وبيان حقيقتها للثقلين دون مواربة أو مناورة .

القاعدة السادسة : قوة الحجة ، وسلامة الفكرة ، وصلابة البرهان .

﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأنعام : ١٤٩] .

وقال أيضاً: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ﴾ [الأنعام : ٨٣] .

وفي قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ الوارد في القاعدة السابقة ، إيضاح وتوكيد لهذه القاعدة .

قال الشنقيطي : « فدلّ على أنَّ الداعي إلى الله لا بدّ أن يكون على بصيرة ، وهي: الدليل الواضح الذي لا لبس في الحق معه ، وينبغي أن تكون دعوته إلى الله بالحكمة ، وحسن الأسلوب ، واللطافة مع إيضاح الحق » (١) .

وقال ابن كثير : « يدعو إلى ما دعا رسول الله ﷺ على بصيرة ويقين وبرهان شرعي وعقلي » (٢) .

حين يأمر الداعيةُ أخواته المسلمات بالحجاب الشرعي فلا بدَّ أن يكون مسلحاً بأدلةٍ واضحة، وحججٍ راسخة، وبراهينَ ساطعةٍ، ويتوقع مواجهته ببعض الشبه فيستعد لها ويفندها واحدة بعد الأخرى حين يكون ملئ اليد بكلِّ برهان متين ، وقول سديد .

(١) انظر : « أضواء البيان » (ج١/ ص٤٦٣) .

(٢) انظر : « تفسير ابن كثير » (٢/ ٤٩٧) .

القاعدة السابعة : توقع العداوة من الآخرين .

إن انتصاب الحاقدين والشانئين لمقاومة الدعوة وتعطيلها بكل حيلة ، وتعويقها بكل وسيلة أمر متوقع لا محالة.

قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ ﴾ [الأنعام : ١١٢] .

وقال تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ [الذاريات : ٥٢] .

عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت : « أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي: الرؤيا الصالحة في النوم ؛ فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبِّب إليه الخلاء ، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه - وهو التعبد الليالي ذوات العدد - قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال : اقرأ. قال : ما أنا بقارئ . قال : فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجَهْد ثم أرسلني ؛ فقال : اقرأ. قلت: ما أنا بقارئ . فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني ؛ فقال : اقرأ . فقلت : ما أنا بقارئ . فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني ؛ فقال : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) ﴾ ، فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد - رضي الله عنها - فقال : زَمِّلوني زَمِّلوني؛ فزَمَّلوه حتى ذهب عنه الروع فقال لخديجة وأخبرها الخبر: لقد خشيت على نفسي . فقالت خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبدا! إنك لتصل الرحم، وتَحمل الكَلَّ ، وتَكْسِبُ المعدوم، وتُقْرِي الضيف، وتُعين على نوائبِ الحقِّ، فانطلقت به خديجة حتى أتت به وَرَقَةَ بن نَوْفَل بن أسد بن عبد العُزى - ابن عم خديجة وكان امرأً تنَصَّر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العِبْرَاني؛ فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي- فقالت له خديجة: يا ابن عم، اسمع من ابن أخيك فقال له ورقة:

يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى . فقال له ورقة : هذا النَّامُوْسُ الذي نزل الله على موسى ﷺ يا ليتني فيها جَذَع، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك! فقال رسول الله ﷺ : أو مخرجيَّ هم ؟ قال : نعم ، لم يأت رجلٌ قط بمثل ما جئتَ به إلا عُودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً ! ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي » (1) .

فطريق الدعوة إذاً ليس مفروشا بالورود والرياحين دائما.

بل هناك العقبات الكؤود ، والمثبطات والمعوقات ، والتحديات والمواجهات ، وهاهو ورقة بن نوفل يخبر رسولنا ﷺ بأنَّه ما جاء أحدٌ بمثل ما جاء به من العلم والحقِّ والهُدى إلا عُودي ! فلا بدَّ من توطين النفس على المواجهة والمكابدة، مع الوثوق التام بنصر الله، وتوفيقه القريب .

(1) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب بدء الوحي ، باب بدء الوحي ، حديث رقم (٣) (١ / ٥) . ومسلم في صحيحه ، كتاب الإيمان ، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ، حديث رقم (٢٣١) (١ / ٣٨١) .

القاعدة الثامنة : الصبرُ على أعباءِ الدعوة، ومشآق الطريق !

إن الصبر سلاح ماضٍ وقوي، لا غنى للداعية عنه ، وهو يخوض غمار الدعوة إلى الله !

والداعية الصادق لا يضع سلاحه ولا تتوقف دعوته حتى يُوَسَّد الثرى ، ويُحال بينه وبين البلاغ بانقضاء الأجل ؛ ففي وصية لقمان لابنه : ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾ [لقمان : ١٧] .

وفي سورة إبراهيم الخليل -عليه السلام- أقسم الرسل لأقوامهم بأن يصبروا على أذاهم ، وأن يمضوا قدماً في طريقهم ! ﴿ وَلَنَصۡبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيۡتُمُونَاۚ ﴾ [إبراهيم : ١٢] .

وفي سيرة نبينا ﷺ مئات الشواهد على صبره وثباته؛ فلقد تعرض ﷺ لألوان من الأذى النفسي والبدني ، من سب وشتم وتحقير وتسفيه، بل وضرب وجرح ، ومحاولات عدة لتصفيته جسدياً، فصبر وصابر - بأبي هو وأمي- ﷺ حتى تحققت آماله الشريفة .

وحسب القارئ الكريم هذه الأمثلة المختصرة ؛ فالمقام ليس مقام بسط وتتبع ..

عن عروة ، أنَّ أسامة بن زيد رضي الله عنه أخبره أنَّ النبي ﷺ « ركب حماراً عليه إكاف [(١)] تحته قطيفة فدكية ، وأردف وراءه أسامة ، وهو يعود سعد بن عبادة رضي الله عنه في بني الحارث بن الخزرج - وذاك قبل وقعة بدر- حتى مرَّ بمجلس فيه أخلاط من المسلمين والمشركين، عبدة الأوثان واليهود، فيهم عبد الله بن أبي، وفي المجلس عبد الله بن رواحة رضي الله عنه فلما غشيت المجلس عجاجةُ الدابَّة خمّر عبدُ الله

---

(١) إكاف الحمار ككتاب وغراب ووكافه برذعته والأكاف صانعه وآكف الحمار إيكافا وأكفه تأكيفا شده عليه وأكف الأكاف تأكيفا اتخذه (القاموس المحيط ج١/ ص : ١٠٢٤) .

بن أبي أنفه بردائه ثم قال : لا تُغبروا علينا؛ فسلّم عليهم النبي ﷺ ثم وقف فنزل فدعاهم إلى الله ، وقرأ عليهم القرآن. فقال عبد الله بن أبيّ : أيها المرءُ لا أحسن من هذا! إن كان ما تقولُ حقاً فلا تؤذنا في مجالسنا، وارجع إلى رحلك فمن جاءك منا فاقصص عليه ! فقال عبد الله بن رواحة ﷺ : اغشنا في مجالسنا فإنا نحب ذلك! قال: فاستبَّ المسلمون والمشركون واليهود ، حتى همُّوا أن يتواثبوا! فلم يزل النبي ﷺ يُخفِّضهم ، ثم ركب دابَّته حتى دخل على سعد بن عبادة ﷺ فقال: أي سعد ،ألم تسمع إلى ما قال أبو حباب – يريد عبد الله بن أبيّ– قال : كذا وكذا ! قال : اعف عنه يا رسول الله واصفح ، فوالله لقد أعطاك الله الذي أعطاك ولقد اصطلح أهل هذه البُحَيْرة [1] أن يتوجوه فيعصبوه بالعصابة ، فلمّا ردّ الله ذلك بالحق الذي أعطاكه شرق بذلك؛ فذلك فعل به ما رأيت! فعفا عنه النبي ﷺ » [2] .

وفي البخاري ومسلم واللفظ لمسلم « عن عروة بن الزبير، أنَّ عائشة زوج النبي ﷺ حدثته أنها قالت لرسول الله ﷺ : يا رسول الله هل أتى عليك يوم كان أشدّ من يوم أحد ؟ ، فقال : لقد لقيت من قومك ! وكان أشدَّ ما لقيت منهم يومُ العقبة، إذ عرضت نفسي على عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت! فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا بقرن الثعالب [3] ، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني؛ فقال : إنَّ الله

(١) البُحيرة بالتصغير وهذا اللفظ يطلق على القرية وعلى البلد والمراد به هنا المدينة النبوية . ينظر: (فتح الباري ج٨/ ص٢٣٢) .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الاستئذان ، باب التسليم في مجلسٍ فيه أخلاطٌ من المسلمين والمشركين ، حديث رقم (٢٨٠) (١٩/ ٢٨٠) .

ومسلم في صحيحه ، كتاب الجهَادِ والسِّيَرِ ، باب دعاء النبي ﷺ إلى الله وصبره على أذى المنافقين ، حديث رقم (٣٣٥٦) (٩/ ٢٨٣) .

(٣) قرن الثعالب : نقل ياقوت الحموي عن القاضي عياض، هو قرن المنازل بسكون الراء، ميقات أهل نجد . ينظر : معجم البلدان (٤/ ٣٧٩) .

- عز وجل - قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم. قال: فناداني مَلَك الجبال وسلم علي ثم قال: يا محمد ، إنَّ الله قد سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال، وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك فما شئت ؟

إن شئت أن أطبق عليهم الأَخْشَبَيْن ! [١]، فقال له رسول الله ﷺ : بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا » [٢].

(١) الأخشبان: الجبلان المطيفان بمكة وهما: أبو قبيس والأحمر هو جبل مشرف يوجهه على قعيعان. والأخشب كل جبل خشن غليظ الحجارة . ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (ج٢/ ص٣٢) .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب بدءِ الخَلْقِ ، باب ذكر الملائكة ، حديث رقم (٢٩٩٢) (١١/ ٨) .

ومسلم في صحيحه ، كتاب الجهَادِ والسِّيَرِ ، باب ما لقي النبيُّ ﷺ من أذى المُشركينَ والمُنافقينَ ، حديث رقم (٣٣٥٢) (٩/ ٢٧٨) .

القاعدة التاسعة : التوكل على الله سبحانه .

وفي حوار الرسل لأقوامهم : ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [إبراهيم : ١٢] .

قال ابن سعدي : « ما لنا أن لا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا أي: أي شيء يمنعنا من التوكل على الله، والحال أننا على الحق والهدى، ومن كان على الحق والهدى فإنَّ هداه يوجب له تمام التوكل ؟ وكذلك ما يعلم من أنَّ الله متكفلٌ بمعونة المهتدي وكفايته يدعو إلى ذلك، بخلاف من لم يكن على الحق والهدى؛ فإنّه ليس ضامناً على الله، فإنّ حاله مناقضةٌ لحال المتوكل، وفي هذا كالإشارة من الرسل – عليهم الصلاة والسلام– لقومهم بآية عظيمة، وهو: أنّ قومهم في الغالب أنّ لهم القهر والغلبة عليهم، فتحدتهم رسلهم بأنهم متوكلون على الله في دفع كيدهم ومكرهم ، وجازمون بكفايته إياهم، وقد كفاهم الله شرهم مع حرصهم على إتلافهم وإطفاء ما معهم من الحق فيكون هذا كقول نوح لقومه : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴾ [يونس : ٧١] ، وقول هود عليه السلام: ﴿قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللّهِ وَاشْهَدُواْ أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ *مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ﴾ » [هود :٥٤–٥٥] (١) .

إذاً فالتوكل على الله قاعدة أساسية لا غنى للدعاة عنها ، ذلك أن تخذيل النفس ، ووسوسة الشيطان وكثرة العدو ، عوائق فاعلة أمام دعاة الحق ، فلا بد من استصحاب صدق العزيمة ، وحُسن التوكل، لتذليل كل هاتيك العقبات واستصغار كل بغي وعدوان .

---

(١) انظر : « تفسير السعدي » (ج١/ ص٢٢٣) .

وإن ركون الداعية إلى قوة الله القاهرة ، وإرادته النافذة ، ونصرته الدائمة كفيل بضمان تحقق ثقة الداعية بنفسه ، وثقته بقرب تحقق موعود الله بالنصر والتمكين.

وقال الشنقيطي في أضواء البيان : « قوله تعالى: ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ [التوبة : ١٢٩] ، أمر تعالى في هذه الآية الكريمة نبيه ﷺ بالتوكل عليه – جلَّ وعلا – ولا شك أنه ممتثل ذلك ، فهو سيد المتوكلين –عليه صلوات الله وسلامه – والتوكل على الله تعالى هو شأن إخوانه من المرسلين – صلوات الله عليهم وسلامه – ومن أوضح الأدلة على عظم توكل نبينا ﷺ على الله قوله يوم «حُنين» وهو على بغلة في ذلك الموقف العظيم :

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب » [(١)] .

(١) انظر : « أضواء البيان » (ج٢/ ص١٤٩) .

القاعدة العاشرة : الاعتقاد الجازم بأن الهداية بمعناها الخاص بيد الله وحده .

قال تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ [البقرة : ٢٧٢] .

وقال: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ [القصص : ٥٦] .

وهذه الهداية التي استأثر الله بها هي : هداية التوفيق والإلهام، وهي هداية منفية عمّا سوى الله – تعالى – فلا تعارض الهداية المثبتة المتاحة لكل أحد من الناس والمشار إليها بقوله تعالى : ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى : ٥٢] .

إذ المقصود بهذه الأخيرة هداية الدلالة والإرشاد .

فالداعية يهدي الناس بمعنى يدلهم ويرشدهم إلى الحق وإلى طريق مستقيم، وأما استجابة الناس فذلك مما اختص الله به وحده .

قال ابن سعدي : « ليس عليك من هدايتهم وتوفيقهم شيء بل أنت مطالب بالوعظ والتذكير والإنذار والتحذير، فإذا أديت ما عليك فحسابهم على الله ، فإنهم يرون الإحسان ويعرفون نعمة الله ولكنهم ينكرونها ويجحدونها » (١) .

(١) انظر : « تفسير السعدي » (ج١/ ص٤٤٦) .

القاعدة الحادية عشرة : عدم استعجال النتائج .

إنَّ الداعية غير مطالب بتحقيق النتائج الإيجابية فضلا عن استعجالها !

قال الله : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة : ٢١٤] .

لقد أخرج رسول الله ﷺ من مكة ؛ فلم يعد إليها إلا في السنة الثامنة من الهجرة الشريفة ، وفيها تحقق الفتح المبين والأمل الكبير ، ودخل الناس في دين الله أفواجاً.

قال ابن كثير : « قد نسخ الله شريعة جميع الرسل بما بعث الله به محمداً ﷺ من الدين الحق الذي لا يغير ولا يبدل إلى قيام الساعة ، ولا يزال قائماً منصوراً ظاهراً على كل دين ؛ فلهذا فتح الله لأصحابه مشارق الأرض ومغاربها ، واجتازوا جميع الممالك ، ودانت لهم جميع الدول ، وكسروا كسرى ، وقصروا قيصر، وسلبوهما كنوزهما وأنفقت في سبيل الله ، كما أخبرهم بذلك نبيهم عن ربهم -عز وجل- في قوله :﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [النور : ٥٥] »(١) .

وقال أيضاً : « وعد من الله تعالى لرسولهﷺ بأنه سيجعل أمته خلفاء الأرض، أي أئمة الناس والولاة عليهم ، وبهم تصلح البلاد، وتخضع لهم العباد، وليبدلنهم من بعد خوفهم من الناس أمنا وحكما فيهم، وقد فعله -تبارك وتعالى- وله الحمد والمنة، فإنه ﷺ لم يمت حتى فتح الله عليه مكة وخيبر والبحرين وسائر جزيرة العرب وأرض اليمن بكمالها، وأخذ الجزية من مجوس هجر، ومن بعض أطراف الشام، وهادنه هرقل ملك الروم ، وصاحب مصر واسكندرية – وهو المقوقس- وملوك عمان، والنجاشي – ملك الحبشة – الذي

---

(١) انظر : « تفسير ابن كثير » (ج١/ ص٣٦٨) .

تملك بعد أصحمة -رحمه الله وأكرمه- ثم لمّا مات رسول الله ﷺ واختار الله له ما عنده من الكرامة قام بالأمر بعده خليفته أبو بكر الصديق ﵁ فلمّ شعث ما وهى بعد موته ﷺ وأطد جزيرة العرب ومهّدها، وبعث جيوش الإسلام إلى بلاد فارس، صُحبة خالد بن الوليد ﵁ ففتحوا طرفا منها، وقتلوا خلقا من أهلها، وجيشاً آخر صُحبة أبي عبيدة ﵁ ومن اتبعه من الأمراء إلى أرض الشام، وثالثاً صُحبة عمرو بن العاص ﵁ إلى بلاد مصر، ففتح الله للجيش الشامي في أيامه بُصرى ودمشق ومخاليفهما من بلاد حوران وما والاها، وتوفاه الله عز وجل واختار له ما عنده من الكرامة ،ومنّ على أهل الإسلام بأن ألهم الصديق أن يستخلف عمر الفاروق ﵁ فقام بالأمر بعده قياما تاما لم يدر الفلك بعد الأنبياء على مثله في قوة سيرته وكمال عدله، وتمّ في أيامه فتح البلاد الشامية بكمالها، وديار مصر إلى آخرها ، وأكثر إقليم فارس، وكسر كسرى وأهانه غاية الهوان ، وتقهقر إلى أقصى مملكته ، وقصر قيصر ، وانتزع يده عن بلاد الشام ، وانحدر إلى القسطنطينية وأنفق أموالهما في سبيل الله كما أخبر بذلك ووعد به رسول الله عليه من ربه أتم سلام وأزكى صلاة ، ثم لمّا كانت الدولة العثمانية [1] ، امتدت الممالك الإسلامية إلى أقصى مشارق الأرض ومغاربها، ففتحت بلاد المغرب إلى أقصى ما هنالك؛ الأندلس وقبرص وبلاد القيروان وبلاد سبتة ممّا يلي البحر المحيط ، ومن ناحية المشرق إلى أقصى بلاد الصين، وقتل كسرى، وباد ملكه بالكلية ، وفتحت مدائن العراق وخراسان والأهواز، وقتل المسلمون من الترك مقتلة عظيمة جداً وخذل الله ملكهم الأعظم (خاقان) وجبي الخراج من المشارق والمغارب إلى حضرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان ﵁ وذلك ببركة تلاوته ودراسته وجمعه الأمة على حفظ القرآن ، ولهذا ثبت في الصحيح [2] عن ثوبان

---

(١) الدولة العثمانية: نسبة إلى الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ، كِتَاب الْفِتَنِ وَأَشْرَاطِ السَّاعَةِ ، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض، حديث رقم (٥١٤٤) (١٤/ ٦٨) .

قال: قال: رسول الله ﷺ إنَّ الله زوى لي الأرض ، فرأيتُ مشارقها ومغاربها، وإنّ أمتي سيبلغ ملكها ما زُوي لي منها ، وأُعطيت الكنزين : الأحمر والأبيض .. الحديث » (١) .

وفي صحيح البخاري عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال : « بينا أنا عند النبي ﷺ إذ أتاه رجلٌ فشكا إليه الفاقة ، ثم أتاه آخر فشكا قطع السبيل ، فقال : يا عدي هل رأيت الحِيْرَة ؟ قلت : لم أرها، وقد أنبئت عنها . قال : فإن طالت بك حياة لترين الظَّعِيْنَة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحداً إلا الله ! قلت : فيما بيني وبين نفسي فأين دِعار طيئ الذين قد سعروا البلاد ؟!

ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى! قلت : كسرى بن هُرْمُز ؟! قال : كسرى بن هرمز ! ، ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يُخرج ملء كفه من ذهب أو فضة يطلب من يقبله منه فلا يجد أحداً يقبله منه!، وليلقين الله أحدُكم يوم يلقاه وليس بينه وبينه ترجمان يترجم له ، فيقول : ألم أبعث إليك رسولا فيبلغك ؟ فيقول : بلى. فيقول : ألم أعطك مالاً وولداً وأُفضل عليك ؟ فيقول : بلى. فينظر عن يمينه فلا يرى إلا جهنّم ، وينظر عن يساره فلا يرى إلا جهنّم! قال عدي: سمعت النبي ﷺ يقول: اتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد شق تمرة، فبكلمة طيبة. قال عدي : فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله ! وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز، ولئن طالت بكم حياة لترون ما قال النبي أبو القاسم ﷺ يُخرج ملء كفه » (٢).

---

(١) انظر : « تفسير ابن كثير » (ج٣/ ص٣٠١) .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب المَنَاقِبِ ، باب علامات النبوة في الإسلام ، حديث رقم (٣٣٢٨) (١١/ ٤٢٩) .

القاعدة الثانية عشرة: مهمة الداعية البلاغ .

قال الله تعالى : ﴿ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [العنكبوت : ١٨] .

وقال الله ﷻ : ﴿ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ﴾ [الشورى : ٤٨] .

فهذه حقيقة وظيفة الداعية، ومهمته الأساس؛ أن يبلغ رسالة ربه نقية كما جاء بها نبيه عليه الصلاة والسلام من عند ربه بلا زيادة أو نقصان أو تحريف أو تبديل، فيصدع بالحق لا يخاف في الله لومة لائم كما قال سبحانه : ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ ﴾ [الأحزاب : ٣٩] .

ويستحضر كذلك ما سبق الإشارة إليه في القواعد السابقة من أن هداية الناس واستجابتهم ليس موكولا إليه .

قال الطبري : « ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ يقول : وغير واجب على من أرسله الله إلى قوم برسالة إلاّ أن يبلغهم رسالته بلاغاً يُبين لهم ذلك البلاغ عمّا أراد الله به ، يقول : فليس على محمد أيها الناس إلاّ أداء رسالة الله إليكم ، وعليكم الطاعة ، وإن أطعتموه لحظوظ أنفسكم تصيبون ، وإن عصيتموه بأنفسكم فتوبقون » [(١)] .

وفي صحيح البخاري باب قول الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ [المائدة : ٦٧] [(٢)] .

وقال الشنقيطي في أضواء البيان : « إنما عليك البلاغ والإنذار أما هداهم وتوفيقهم فهو بيد الله تعالى كما أن حسابهم عليه جل وعلا » [(٣)] .

---

(١) انظر : « تفسير الطبري » (ج١٨/ ص١٥٨) .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب تفسير القرآن ، باب قوله تعالى : { يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك } ، (١٤/ ١٣٢) .

(٣) انظر : « أضواء البيان » (ج٢/ ص٢٢٣) .

القاعدة الثالثة عشرة: الجمع بين البشارة والنذارة باعتدال :

قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾ [الأحزاب ٤٥] ، فالداعيةُ الموفق هو من يجمع بين البشارة والنذارة باعتدال دون أن يطغى جانب على آخر إلا بما اقتضته أحوال وظروف معينة؛ فإنه حين يحضر رجلاً في حالة احتضار مثلاً ؛ فإنّ تغليب جانب الرجاء في محادثته وملاطفته أولى وأحرى ؛ لقرب قدومه على ربه ، وخشية من انفعاله وتسخطه و تلفظه بألفاظ توبق آخرته ودنياه !!

ففي صحيح مسلم عن ابن شماسة المهري (1) ، قال : « حضرنا عمرو بن العاص – وهو في سياقة الموت – فبكى طويلا وحول وجهه إلى الجدار ، فجعل ابنه يقول : يا أبتاه أما بشرك رسول الله ﷺ بكذا ؟ أما بشرك رسول الله ﷺ بكذا ؟ قال : فأقبل بوجهه فقال : إنّ أفضل ما نُعد شهادة أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله إنّي قد كنت على أطباق ثلاث لقد رأيتني وما أحد أشدّ بغضاً لرسول الله ﷺ منّي ولا أحبّ إليّ أنْ أكون قد استمكنتُ منه فقتلته، فلو مت على تلك الحال ؛ لكنت من أهل النار! فلما جعل الله الإسلام في قلبي أتيت النبي ﷺ فقلت: ابسط يمينك فلأبايعك . فبسط يمينه . قال : فقبضت يدي . قال : مالك يا عمرو ؟ قال: قلت: أردت أن أشترط . قال : تشترط بماذا ؟ قلت : أن يغفر لي . قال : أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله ، وأنّ الهجرة تهدم ما كان قبلها ، وأنّ الحج يهدم ما كان قبله ؟ وما كان أحدٌ أحبّ إلي من رسول الله ﷺ ولا أجلّ في عيني منه، وما كنتُ أطيق أن أملأ عينيّ منه إجلالاً له ! ولو سُئلتُ أن أصفه ما أطقت ؛ لأني لم أكن أملأ عينيّ منه ! ولو متُّ على تلك الحال ؛ لرجوت أن أكون من أهل الجنة ! ثم ولينا أشياء ما أدري ما حالي فيها فإذا أنا متُّ فلا تصحبني

(١) هو عبد الرحمن بن شماسة المهري المصري ثقة من الثالثة مات سنة : (١٠١هـ) أو بعدها . ينظر « التقريب » (ص : ٣٤٢) .

نائحةٌ ولا نارٌ ؛ فإذا دفنتموني فشنوا علي التراب شناً ، ثم أقيموا حول قبري قدر ما تُنحر جزورٌ ويُقسمُ لحمها حتى أستأنس بكم ، وأنظرَ ماذا أراجعُ به رُسل ربي » [1] .

قلت : وأما حين يجد الداعية رجلاً أسرف على نفسه ، وعاقر المحرمات والمنكرات ، واستخف بجناب الله ؛ فإن تخويفه أولى مع إبقاء باب الرجاء مفتوحاً أمامه فالموازنة بين الخوف والرجاء، والترغيب والترهيب، قاعدة مهمة لنجاح الداعية وفعالية الدعوة .

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الإيمان ، باب كون الإسلام يهدم ما قبله وكذا الهجرة ، حديث رقم (١٧٣) (١/ ٣٠٤) .

القاعدة الرابعة عشرة: الوقوف عند حدود الشارع

قال الله تعالى : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ [آل عمران : ١٢٨] .

قال الطبري : « وتأويل قوله ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾ ليس إليك يا محمد من أمر خلقي إلا أن تنفذ فيهم أمري وتنتهي فيهم إلى طاعتي ، وإنّما أمرهم إلي والقضاء فيهم بيدي دون غيري ، أقضي فيهم وأحكم بالذي أشاء من التوبة على من كفر بي وعصاني وخالف أمري ، أو العذاب إما في عاجل الدنيا بالقتل والنقم المُبِيرة وإما في آجل الآخرة بما أعددت لأهل الكفر بي » [(١)] .

وقال القرطبي : « نبه الله تعالى على نبيه على أنّ الأمر ليس إليه، وأنه لا يعلم من الغيب شيئاً إلاّ ما أعلمه، وأنّ الأمر كلّه لله يتوب على من يشاء، ويعجل العقوبة لمن يشاء، والتقدير ليس لك من الأمر شيءٌ » [(٢)] .

فالداعيةُ لا ينبغي أن يقفُوَ ما ليس له به علم ، فلا يحكم لأحد بجنة ولا نار، إلاّ لمن حكم الله له بذلك أو أخبر عنه رسوله ﷺ كما لا يجوز له التبديع أو التفسيق أو التكفير إلا ببرهان وحجة من كتاب أو سنة ، فهذه الأسماء والأحكام لا ينبغي أن تكون ردود أفعال لدى الداعية، بل يجب أن تكون منطلقة من ضوابط شرعية فحسب .

(١) انظر : « تفسير الطبري » (ج٤/ ص٨٦) .

(٢) انظر : « تفسير القرطبي » (ج٤/ ص٢٠٠) .

القاعدة الخامسة عشرة: الثقة بحسن العاقبة

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ [هود : ٤٩] .

قال ابن كثير : « فاصبر على تكذيب من كذبك من قومك وأذاهم لك ؛ فإنّا سننصرُك ونحوطُك بعنايتنا، ونجعلُ العاقبة لك ولأتباعك في الدنيا والآخرة ، كما فعلنا بالمرسلين حيث نصرناهم على أعدائهم »(١) .

فالداعيةُ المسلم ينبغي أن يكون مطمئناً إلى حتمية الفوز بحسن العاقبة، ومهما ظهر أمامه من المُعوقات والمُخذلات والتحديات فإنّها ستتلاشى وتذوب جميعاً، وتتحطمُ أمام قوة الإصرار وصلابة العزيمة .

قال الله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ [الصف : ٨] .

وقال : ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٢١] .

(١) انظر : « تفسير ابن كثير » (ج٢/ ص٤٥٠) .

القاعدة السادسة عشرة: الثبات على المبدأ

قال الله تعالى: ﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٤].

إن الداعية وهو يخوض غمار الدعوة عرضة للابتزاز والمساومة والتنازل عن المبدأ وتقريب (وجهات النظر) (واختزال ساحة الخلاف) (وحماية مكاسب الدعوة) و(تأليف القلوب) و (والاستفادة من النقاط الكثيرة المتفق عليها) .

قال الشنقيطي في الأضواء : « ومعنى الآية الكريمة أن الكفار كادوا يفتنونه أي قاربوا ذلك ومعنى (يفتنونك) يزلونك عن الذي أوحينا إليك (لتفتري علينا) غيره مما لم نوحه إليك ، قال بعض أهل العلم : قاربوا ذلك في ظنهم لا في نفس الأمر ! وقيل : معنى ذلك أنه خطر في قلبه ﷺ أن يوافقهم في بعض ما أحبوا ليجرهم إلى الإسلام لشدة حرصه على إسلامهم ، وبين في موضع آخر أنهم طلبوا منه الإتيان بغير ما أوحي إليه ، وأنّه امتنع أشد الامتناع وقال لهم : إنّه لا يمكنه أن يأتي بشيء من تلقاء نفسه بل يتبع ما أوحى إليه ربه ! »[(١)] .

(١) انظر : « تفسير أضواء البيان » (ج٣/ ص١٧٨) .

القاعدة السابعة عشرة: الصدع بالحق.

قال الله تعالى: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [الحجر : ٩٤] .

قال الشنقيطي في الأضواء : « أي فاجهر به وأظهره من قولهم : صدع بالحجة إذا تكلم بها جهارا كقولك صرح بها ، وهذه الآية الكريمة أمر الله فيها نبيه ﷺ بتبليغ ما أمر به علنا في غير خفاء ولا مواربة ، وأوضح هذا المعنى في مواضع كثيرة كقوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [المائدة : ٦٧] » (١) .

وهكذا قال القرطبي في سياق بيانه مفهوم الصدع وحده : « أي بالذي تؤمر به أي بلغ رسالة الله جميع الخلق لتقوم الحجة عليهم فقد أمرك الله بذلك » (٢) .

قلت :

إن من متطلبات الدعوة ونجاحها ، ومن توفيق الداعية وفلاحه : وضوح الدعوة ، وشجاعة الداعية ، وصدعه بالحق ؛ فطريق الدعوة لا مجال فيه للمخالفين أو الأشحاء بدنياهم ومناصبهم ووظائفهم.

ذلك أنَّ شياطين الأنس قد يعترضون مسيرتهم ويكيدون لهم ؛ بل ذلك أمر لا مناص عنه ولا فكاك منه .

والدعاةُ كثيرا ما يصطدمون بما لدى الناس من الأهواء والشهوات والمحرمات ؛ فتنشأ العداوات والأحقاد والمكائد ؛ لكن ذلك لا يثني الداعية عن الصدع بالحق مهما كانت التحديات ، وليعلم بأن الله ناصره ومؤيده ، وأنَّ الآجال والأرزاق بيد الله سبحانه فلا مكان للخوف والجزع إذاً.

---

(١) المرجع السابق (ج٢/ ص٣١٩) .

(٢) انظر : « تفسير القرطبي » (ج١٠/ ص٦١) .

القاعدة الثامنة عشرة: الدعاء سلاح الداعية الفتاك

قال تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر : ٦٠] .

وقال : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة : ١٨٦] .

فإذا كانت استجابة الله للدعاء متاحة للجميع، فهي للدعاة الباذلين أعمارهم ومهجهم في سبيل الله أولى وأحرى ، وإذا كان الله قريباً من عباده عامة يجيب دعوة الداعي إذا دعاه ؛ فإنه من الدعاة والمخلصين أشد قرباً .

إنَّ للدعاء أثراً عظيماً ، ونتائج باهرةً ، فلطالما حول الهزيمة نصراً ، والذلّ عزاً ، والفقر غنى ، والشتات اجتماعاً ، والمرض صحةً !

بالدعاء تحول ضعف المسلمين يوم بدر إلى قوة ! وبالدعاء تحولت هزيمتهم يوم حنين إلى نصر ! وبالدعاء تحول ذل المسلمين في مكة إلى عز بالمدينة !

وبالدعاء تحول فقر المسلمين إلى غنى يوم خيبر !

وبالدعاء تحول شتات المسلمين إلى اجتماع في عين جالوت !

وبالدعاء ذاق أيوب عليه السلام طعم العافية بعد صراع طويل مع الألم والمرض !

وبالدعاء هدى الله عمر الفاروق رضي الله عنه إلى الحق ، وأعز به الإسلام !

وبالدعاء أسلمت دوس عن بكرة أبيها !

وبالدعاء أقر الله عين أبي هريرة رضي الله عنه بإسلام أمه !

وبالدعاء كف الله يد الفاجر عن سارة زوج إبراهيم عليه السلام !

وبالدعاء تزلزل الجبل من تحت أقدام زبانية الملك ونجا الغلام !

وبالدعاء أغرق الله زبانية الملك ونجا الغلام كذلك !

وبالدعاء فرج الله ليونس عليه السلام وخرج من بطن الحوت !

وبالدعاء أغرق الله قوم نوح !

وبالدعاء أخذت قوم صالح الرجفة !

وبالدعاء دمرت عاداً الريح العقيم !!

وبالدعاء خُلعت قلوب قوم شعيب في أجوافهم ! وبالدعاء أمطر قوم لوط بحجارة من السماء !!

القاعدة التاسعة عشرة : الاستعانة بالصلاة

قال الله تعالى : ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴾ [البقرة : ٤٥] .

ذلك أن الصلاة بخشوعها وطمأنينتها وشفافيتها وكونها مناجاة وصلة مباشرة بين العبد وربه تغدق على الداعية زخماً هائلاً من الثقة والاطمئنان ، وظلالاً وارفةً من السكينة والثبات !

ولقد قام نبينا عليه السلام كما في الصحيح حتى تفطرت قدماه الشريفتان ؛ فكان قيامه الطويل سبباً في ثبات ورباطة جأشه، وقدرته الفائقة على الصمود واحتواء الأحداث مهما بلغت قسوتها وشدتها .

ففي صحيح البخاري ومسلم من حديث المغيرة رضي الله عنه يقول : « قام النبي ﷺ حتى تورمت قدماه ! فقيل له : غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ! قال : أفلا أكون عبداً شكوراً ؟ » (١) .

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، أبوابُ تقصيرِ الصلاةِ ، باب قيامِ النبي ﷺ الليل حتى ترِمَ قَدَمَاهُ وقالتْ عائشةُ – رضي الله عنها – كان يقومُ حتى تَفَطَّرَ قدماهُ ، حديث رقم (١٠٦٢) (٤/ ٢٩٢) .
ومسلم في صحيحه ، كِتَاب صِفَةِ الْقِيَامَةِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّار ، باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة ، حديث رقم (٥٠٤٤) ١٣/ ٤٤٠) .

القاعدة العشرون : سد الذرائع .

قال تعالى : ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام : ١٠٨] .

إنَّ مسبة دين الكفار ، وتسفيه أحلامهم أمرٌ مشروعٌ في أصله بيد أنّ ما قد ينجمُ عن ذلك السب من جراءة الكفار على سبّ الله – تعالى – نفسه جعل من غير السائغ مبادءة الكفار بالسب اتقاءً لذلك المحذور ، ولذا كان على الداعية استصحاب هذه القاعدة حيثما حلّ وأينما حاضر أو تكلم أو خطب.

قال ابن سعدي : « ينهى الله المؤمنين عن أمر كان جائزا بل مشروعا في الأصل ، وهو : سبُّ آلهة المشركين التي اتخذت أوثانا وآلهة مع الله التي يتقرب إلى الله بإهانتها وسبها ولكن لما كان هذا السبُّ طريقا إلى سبّ المشركين لرب العالمين الذي يجب تنزيه جنابه العظيم عن كلِّ عيب وآفة وسب وقدح ، نهى الله عن سب آلهة المشركين لأنهم يتحمسون لدينهم ويتعصبون له ؛ لأنّ كلّ أمة زيّن الله لهم عملهم فرأوه حسنا ، وذبوا عنه ودافعوا بكل طريق حتى إنهم يسبون الله رب العالمين الذي رسخت عظمته في قلوب الأبرار والفجار إذا سبّ المسلمون آلهتهم ، ولكن الخلق كلهم مرجعهم ومآلهم إلى الله يوم القيامة ، يعرضون عليه وتعرض أعمالهم فينبئهم بما كانوا يعملون من خير وشر ، وفي هذه الآية الكريمة دليل للقاعدة الشرعية ، وهي أنَّ الوسائل تعتبر بالأمور التي توصل إليها ، وأنّ وسائل المحرم ولو كانت جائزة تكون محرمة إذا كانت تفضي إلى الشر » [1] .

(١) انظر : « تفسير ابن سعدي » (ج١/ ص٢٦٨) .

الخاتمة :

وفي الختام ألخِّص للقارئ الكريم هذا البحث بما يلي :

أمعنت النظر في كتاب الله تعالى ، واستخرجت عشرين قاعدةً نصَّ عليها القرآن الكريم تبيِّن للدعاة والمحتسبين المنهجية العملية والأخلاقية التي تمكنهم من ممارسة واجبهم الدعوي والاحتسابي ، ونقلت كلام المفسرين في تفسيرِ الآيات محل البحث والمستنبطة منها القواعد المذكورة بما يضفي على القاعدة التحرير والتحقيق المطلوب .

ولم أنس الاستفادة من سيرة خير البشر ﷺ ، ومواقفه العملية الموضحة للمهام الدعوية والاحتسابية .

وتجدر الإشارة في – نظري– إلى وجود العديد من القواعد المماثلة بحاجة إلى استخراج وتحرير من العسير استقصاؤها في بحث مختصر كهذا، ولعل الله تعالى يقيض لها من إخواني طلبة العلم من يحتسب الأجر في بحثها وإبرازها لتعم الفائدة، وينتشر الخير .

والله ولي التوفيق ، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين.

المراجع :

القرآن الكريم

١. تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، محمد بن عبدالرحمن المباركفوري ، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف،مكتبة ابن تيمية، القاهرة ، ط٢

٢. تفسير أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ، محمد الأمين الشنقيطي ، عالم الكتب ، بيروت، طبعة ٢.

٣. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير،تحقيق محمد عاشور ورفاقه، مطبعة الشعب، القاهرة ، ط:٢ .

٤. تقريب التهذيب ، للحافظ ابن حجر العسقلاني ، تحقيق محمد عوامة ، دار الرشيد ، سوريا ،حلب ، ط: ٣ .

٥. تيسير الكريم الرحمن في تفسيركلام المنان ، عبد الرحمن بن ناصر السعدي ، المجموعة الكاملة ، مركز ابن صالح الثقافي ، عنيزة المملكة العربية السعودية . ط: ١٤٠٧ .

٦. جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، محمد بن جرير الطبري ، دار الفكر بيروت، ط:١٤٠٨

٧. الجامع لأحكام القرآن ، محمد بن أحمد القرطبي ، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط: ١٤٠٨.

٨. سنن الترمذي ، أبو عيسى الترمذي ، تحقيق أحمد شاكر ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

٩. صحيح البخاري ، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري ، دار ابن كثير ، بيروت، ط : ٣.

١٠. صحيح مسلم ، مسلم ابن الحجاج النيسابوري ، تحيق محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .

١١. فتح الباريء بشرح صحيح البخاري ، ابن حجر العسقلاني ، تحقيق محب الدين الخطيب ، دار المعرفة بيروت .

١٢. مسند أحمد ، الإمام أحمد بن حنبل ، مؤسسة قرطبة ، مصر .

١٣. معجم البلدان ، ياقوت الحموي ، تحقيق فريد الجندي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط: ١.

١٤. النهاية في غريب الحديث والأثر، لأبي السعادات المبارك بن محمد الجزري ، ابن الأثير ، تحقيق محمود الطناحي ، وطاهر الزاوي ، توزيع دار الباز ، مكة